الصورة الفنية
عند القدماء والمحدثين

أ.مثنى عبد الرسول الشكري

المعهد العالي لإعداد المعلمين بزليتن

المقدمة

تحتل الصورة مكانة مهمة في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية القديمة من حيث مجال البحث والاهتمام بتحديد ماهيتها ووظيفتها في العمل الأدبي.

ومن هذه المكانة لها لابد من إعطاء موجز مبسوط من خلال هذا المدخل نتعرف من خلاله على المحاولات الأولى لدراسة الصورة في النقد العربي القديم والحديث ، إذ

حفلت مصادرنا النقدية والبلاغية القديمة بومضات مشرقة يتضح من خلالها الجهد العربي المبدع الذي لم يغفل هذا الموضوع.

وان كان النقاد القدامى لم ينهضوا بمفهوم الصورة في المجال الاصطلاحي الدقيق، ولم يخرجوا بها عن مدلولها اللغوي ، ولم يتبلور عندهم بعدها النقدي الأصيل باستثناء عبد القاهر الجرجاني الذي ابتدع لنا في استعمال الصورة دلالة اصطلاحية جديدة.

إذن فالجذور العربية لدراسة الصورة متوافرة وليست مفقودة وان اختلفت وتفاوتت درجة الاهتمام بين إشارات ولمحات بسيطة وعابرة وبين إدراك ووعي عميق لطبيعة الصورة وأثرها في النص الأدبي مع اهتمام بالنواحي الفنية والجمالية فيها إضافة إلى وقفاتهم عند (ماهية الصورة، ومكوناتها كالتشبيه وأدواته وأنواعه والاستعارة وأنماطها)[1].

وهذا ما يدحض ويفند المزاعم التي ترمي الأدب العربي القديم بالفقر في صوره لأنه حافل بالصورة الفنية في اتجاهها الأول ، أي التي تحفل برسم المشاهد الطبيعية ووصفها وصفاً يلم بكل دقائقها وإبعادها[2] ، وأشار الدكتور عبد الإله الصائغ في هذا الصدد إلى (تفضيل أم جندب شعر علقمة غريم زوجها على شعر زوجها امرىء القيس ، ولم يغب عيار الصورة عن النابغة الذبياني حين اعترض نصاً لحسان بن ثابت)[3].

ومع ما ذكرنا من اهتمام نقدنا العربي بموضوع الصورة إلا أننا نعترف بأن هذا النقد قد عالجها معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية ، فاهتم كل الاهتمام بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية ، وتمييز أنواعها وأنماطها المجازية وركز في دراسة الصورة الفنية عند الشعراء الكبار أمثال أبى تمام والبحتري وابن المعتز ، وانتبه إلى الإثارة اللافتة التي تحدثها الصورة في المتلقي ، وقرن هذه الإثارة بنوع من اللذة ، والتفت نوعاً ما إلى الصلة الوثيقة بين الصورة والشعر ، باعتبارها إحدى خصائصه النوعية التي تميزه عن غيره[4].

---

(1) دير الملاك – دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر – محسن أطيمش – منشورات وزارة الإعلام 1982م:221.

(2) ينظرالنقد التطبيقي والموازنات – محمد الصادق عفيفي – دار النهضة –مصر– 1973م:138.

(3) الصورة الفنية في سياق النص الشعري الحديث – جسام قطوس – مجلة أبحاث اليرموك –مجلد 9–العدد 1–1998م :43.

(4) ينظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي –جابر عصفور– دار الثقافة للطباعة والنشر– القاهرة 1974م :8.

ولعل من المفيد أن نشير هنا قبل أن نستعرض جهود بعض النقاد والعلماء العرب في موضوع الصورة إلى مسالة مهمة تتعلق بعدم تحديد هؤلاء العلماء الدقيق أوذكرهم الصريح للخيال وأهميته في إعادة خلق الأشياء في صور فنية غير مألوفة لدى المتلقي ، ولنا أن نلتمس لهم العذر في ذلك بسبب انشغالهم بقضايا استنفذت طاقاتهم وطبعت دراساتهم بطابع التجزئة ، وكانت ثمة قضية اللفظ والمعنى وما يتصل بها من الاستفاضة في بيان خصائصها ، وما بينهما من وشائج وروابط ، وقضية الطبع والصنعة ، وقضية الصدق والكذب[5].

وهذا لا يعني عدم إدراكهم الواعي وإحساسهم العميق بان وراء الصورة يقف عامل مهم يزيد فاعليتها ويقوي أجزائها وان لم يشيروا إليه صراحة. وسنعرض لبعض هذه الجهود ونظرة هؤلاء العلماء إلى الصورة وأولهم في هذا المضمار :

الجاحظ (ت 255هـ)

لقد أشار أبوعثمان عمروبن بحر الجاحظ (ت255هـ) إلى الصورة من خلال نظرته التقويمية للشعر ، والإشارة إلى الخصائص التي تتوافر فيه فرأى أن

> (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الأعجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)[6].

إذن في هذا النص قد تحدث الجاحظ عن التصوير الذي يعد من اقدم النصوص في هذا المجال ، وبمثابة انه قد توصل إلى أهمية جانب التجسيم وأثره في إغناء الفكر بصور حسية قابلة للحركة والنمو، تعطي الشعر قيمة فنية وجمالية ، لا يمكن للمتلقي الاستغناء عنها ، فحينما يكون الشعر جنساً من التصوير يعني هذا (قدرته

---

(5) الصورة المجازية في شعر المتنبي – جليل رشيد فالح– رسالة دكتوراه –كلية الآداب –جامعة بغداد–1985م :13.

(6) الحيوان –الجاحظ–تحقيق عبد السلام هارون – مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر– 1966م 132/3.

على إثارة صور بصرية في ذهن المتلقي ، وهي فكرة تعد المدخل الأول أوالمقدمة الأولى للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى)[7].

وقد أفاد البلاغيون والنقاد العرب الذين جاءوا من بعد الجاحظ من فكرته في جانب التصوير (وحاولوا أن يصبوا اهتماماتهم على الصفات الحسية في التصوير الأدبي وأثره في أدراك المعنى وتمثله ، وان اختلفت آرائهم وتفاوتت في درجاتها)[8].

ابو هلال العسكري (ت 395هـ)

فنجد أبا هلال العسكري (ت 395هـ) قد أشار إلى الصورة في موضوع الإبانة عن حد البلاغة بقوله (والبلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وإنما جعلنا المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة لان الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقاً لم يسم بليغاً وان كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى)[9].

وفي هذا النص إشارة من أبى هلال العسكري بأهمية الصورة في النص الأدبي وما يفعله ويتركه من اثر في قلب السامع ، وهوبهذا يكون قد تأثر وأفاد من فكر الجاحظ كغيره.

وأشار العسكري نص للعتابي عن المعاني والألفاظ وأثرها في إفساد الصورة (الألفاظ أجساد والمعاني أرواح وإنما نراها بعيون القلوب فإذا قدمت منها مؤخراً أوأخرت منها مقدماً أفسدت الصورة وغيرت المعنى)[10].

عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ)

وعندما نتوقف عند الجرجاني (ت 471 هـ) نجد أن منهجه في دراسة الصورة هومنهج متميز عما سبقه من العلماء العرب على الرغم من إفادته الكبيرة من جهودهم فقد افاض في حديثة عن الصورة في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" فمن

---

[7] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :316.

[8] الصورة الفنية معيارا نقديا –منحىً تطبيقي على شعر الأعشى الكبير –عبد الإله الصائغ– دار الشؤون الثقافية – بغداد 1987م :170وما بعدها حيث يستعرض في هذا المجال أراء وجهود العلماء العرب مثل ابن قتيبة وابن طبا طبا والفارابي و الامدى وابن جني وغيرهم، اما راي قدامة بن جعفر وفكرته عن الصورة فقد أشار إليها الدكتور كامل البصير في كتابه بناء الصورة الفنية في البيان العربي دراسة موازنة:33.

[9] كتاب الصناعتين– أبو هلال العسكري –تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه – د.ت :19.

[10] المصدر السابق:179.

إشارته إليها قوله (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً)[11].

ذكر ذلك وهويتحدث عن الاستعارة المقيدة ثم نراه في نص آخر يربط الصورة بدوافع نفسية بالإضافة إلى الخصائص الذوقية والحسية حيث تجتمع هذه الخصائص جميعاً عبر وشائج وصلات حية لتعطي الصورة شكلاً ورونقاً وعمقاً مؤثراً لان (التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أوأبرزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب إليها واستثار لها أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً)[12].

فعبد القاهر الجرجاني لم يهمل الأثر النفسي وأهميته في تكوين وتشكيل الصورة فأتسام تحليلة العميق للخلق والإبداع الشعريين على الذوق الفني المرهف وما تشيره مفردات البيان العربي أوضروبه الفنية من استجابة فنية في نفس متلقيها ، فبدا البيان العربي عنده قائماً على الذوق والتذوق[13].

ويبلغ الجرجاني ذروة إبداعه الفني والنقدي في دراسته للصورة حينما ينظر إليها نظرة متكاملة لاتقوم على اللفظ وحده أوالمعنى وحده بل انهما عنصران مكملان لبعضهما، إذ يقول في ذلك (واعلم أن قولنا الصورة إنما هوتمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا)[14].

ويرى أحد الباحثين أن مفهوم مصطلح الصورة عند الجرجاني قد استقر على أركان ثلاث[15]:

☒ **أولهما:** تناول الصورة والتصوير في خضم البحث البلاغي.

---

(11) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – تحقيق هـ. ريتر – مطبعة وزارة المعارف – الطبعة الثانية 1951م :41.

(12) المصدر السابق:101وما بعدها.

(13) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث – بشرى موسى صالح– المركز الثقافي العربي – بيروت– الطبعة الأولى –1992م :24.

(14) دلائل الإعجاز– عبد القاهر الجرجاني –قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثانية 1989م : 320.

(15) ينظر بناء الصورة الفنية في البيان العربي دراسة موازنة – كامل محمد البصير – مطبعة كلية الآداب – الجامعة المستنصرية.د.ت :42.

- **وثانيهما** : هضم معاني الصورة لغةً واصطلاحاً من شتى مصادرها الأصلية وربطها بالنظرية الأدبية العربية التي ترى أن القول صناعة في عملية خلقها وفي غايتها.
- **وثالثهما** : يتلمس مصادر الصورة الأدبية ووسيلة خلقها ومعيار تقويمها في الواقع بإبعاده الموروثة ومقوماته الحيوية.

فدراسة الصورة عند عبد القاهر هي دراسة متميزة ونظرته نظرة تغاير المفاهيم التي سبقت دراساته مما يحفزنا إلى اعتداده الناقد الأول الذي بسط القول في الصورة مفهوماً واصطلاحاً[16].

فالتراث العربي قد عرف الصورة مصطلحاً ومفهوماً ولم يبخس حقها ، وان اختلفت تسمياتها لدى النقاد والبلاغيين العرب القدامى.

وقد شغلت دراسة الصورة حيزاً واسعاً ومهماً من اهتمامات النقد العربي الحديث واختلفت الاتجاهات بين ناقد متأثر بالتراث العربي ، وبين آخر حاول الإفادة مما درسه وتوصل إليه النقاد الغربيون بشأن الصورة وأهميتها وعناصر تكوينها وبين هذا وذاك حاول نقاد آخرون أن يوفقوا في دراساتهم وبحوثهم في موضوع الصورة بين تراثنا الخالد وما خلفه لنا الأجداد من ارث نقدي وبلاغي على جانب كبير من الأهمية وبين الدراسة الجديدة والموضوعية للصورة عن الغرب ووقوفهم على مسائل مهمة لاغنى للباحث والدارس عنها ابداً[17].

فالنظريات النقدية القديمة والمعاصرة تؤكد (على الخصائص النوعية للأدب باعتباره نشاطاً تخيلياً متميزاً من الأنشطة الإنسانية)[18]، ومن خلال هذا التأكيد يعمل النقد المعاصر على النفاذ إلى نسيج العمل الشعري باعتباره بنية من العلاقات كشفت تفاعلها عن معنى القصيدة[19]، وتبتغي إثراء المتلقي من خلال أسلوبها المميز (فظل الاهتمام قائماً مادام هناك شعراء يبدعون ونقاد يحاولون تحليل ماابدعوه وادراكه والحكم عليه)[20].

---

[16] ينظر الصورة المجازية في شعر المتنبي :.16.

[17] لمزيد من الاطلاع ينظر الصورة الفنية معياراً نقدياً:144 فقد أشار الدكتور الصائغ إلى منطلقات الباحثين في دراساتهم للصورة ، ويظر ايضاً الصورة الفنية في نقد الشعر العربي الحديث :35 حيث تذكر الدكتورة بشرى موسى إلى اختلاف الدراسات النقدية المعاصرة في النظر في أصالة مصطلح الصورة.

[18] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :7.

[19] المصدر السابق :7.

[20] المصدر السابق :8.

ومن خلال هذا المفهوم على التأكيد على الخصائص النوعية للأدب والنفاذ في نسيج العمل الشعري تظهر للناقد المعاصر أهمية الصورة وفهمها (فهي وسيلته التي يكشف بها القصيدة وموقف الشاعر من الواقع)[21] ، وإلى مدى (قدرة الشاعر على تشكيل الصورة في نسق يحقق المتعة والخبرة لمن يتلقاها)[22].

إذن فالصورة هي الجوهر الثابت والدائم في الشعر ، فهي تسير مع الشعر وهي خاضعة بتغير متى ما خضع الشعر في تغير مفاهيمه ونظرياته فهي بالتالي متغيرة في مفاهيمها ونظرياتها أيضا وهذا الأمر يعود إلى الاهتمام بها ، لانه ثمة إبداع في الشعر وهذا الإبداع ناتج من إبداع الصورة على مدى تطور مفاهيم الشعر منذ القدم وحتى الوقت الحاضر.

على الرغم من التعريفات الكثير لها فان الصورة الفنية واحدة من مكونات هذا البناء[23] في القصيدة بل لقد عرفها النقاد بأنها (صورة كلية)[24] للقصيدة أو أنها تلك التركيبة اللغوية المتحققة من امتزاج الشكل بالمضمون في سياق بياني خاص حقيقي موح كاشف ومعبر عن جانب من جوانب التجارب الشعرية[25].

فان قيمتها الحقيقية تتأتى من سياقها ضمن القصيدة ، إذ تحمل دلالات غير محددة للكشف عن جوهر التجربة الإبداعية.

فهي طريق خاصة من طرق التعبير أو وجه من اوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في المعاني من خصوصية وتأثير ، ولكن اياً كانت هذه الخصوصية ، أو ذاك التأثير(فان الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته أنها لا تغير الا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه)[26]، فهي كيان فني متميز قيم في ذاته وخارج ذاته ، فالشعر لا

---

[21] المصدر السابق :7.
[22] المصدر السابق :7.
[23] بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر ، مرشد الزبيدي – دار الشؤون الثقافية – بغداد – 1994م :45.
[24] الحركة الشعرية في فلسطين منذ 1948 حتى 1975– جمال أبو اصبع – المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الأولى 1979م :41.
[25] الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث :20.
[26] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :392.

يكون شعراً كما نعتقد– من غير صور – فهو في جوهره نسيج صوري يترسم الشاعر ملامحه باللغة منها واليها معها وضدها ، ولذا فكل معنى شعري هو صورة لا محاله وكل صورة هي موقف من العالم يتضح ويتوهج من خلال اللغة ،والمرآة التي لا تعكس الخصوصية والوجه الإبداعي للشاعر فحسب ، بل أنها تحمل سمات المرحلة الشعرية التي يعد الشاعر جزءاً منها.

فإبداع الشاعر في الصورة ليس قائماً على طبيعة الموضوع ونوعه وإنما توازناً بين المجهول والمعلوم للوصول إلى الدهشة المبتغاة أو القيمة الفكرية المطلوبة حيث تنبثق من إحساس عميق وشعور مكثف يسعى إلى أن يتجسد في تركيبة لغوية ذات نسق خاص.

ويذهب بعض النقاد إلى أنها الصوغ اللساني المخصوص الذي بوساطته يجري تمثل المعاني تمثلاً جديداً ومبتكراً بما يحيلها إلى صور مرئية معبرة، وذلك الصوغ المتميز والمتفرد هوفي حقيقة الأمر، عدول عن صيغ آحالية من القول إلى صيغ إيحائية ، تأخذ مدياتها التعبيرية في تضاعيف الخطاب الأدبي ، وما تثيره الصورة في حقل الأدب يتصل بكيفيات التعبير لا بما هياته ، وهي تهدف إلى تحويل غير المرئي من المعاني إلى المحسوس ، وتعويم الغائب إلى ضرب من الحضور ، ولكن بما يثير الاختلاف ويستدعي التأويل بقرينه أو دليل ، الأمر الذي يغذي المعنى الأدبي بفرادته المخصوصة لدى المتلقي ، إذ تنحرف الألفاظ في التشكيل الصوري عن دلالاتها المعجمية إلى دلالات خطابية صافية وجديدة ، ومن ثم يمنح النص هويته التي تتجدد دائماً مع كل قراءة[27].

وبهذا نكون قد تعرفنا على ماهية الصورة الشعرية ، وطبيعتها الفنية التي تضم حشداً فاعلاً من العناصر المؤثرة لكي تجعل منها تشكيلاً جمالياً (تستحضر فيه لغة الإبداع الهيأة الحسية أو الشعورية للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة تمليها قدرة

[27] الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث :13.

الشاعر وتجربته على وفق تعادلية فنية بين طرفين هما المجاز والحقيقة دون أن يستبد طرف آخر)[28].

ويعتبر التطبيق في النص الشعري (القصيدة) هو المحك في منح الفرصة لدراسة هذه الصور وتحليلها والتعرف على مواطن الإبداع فيها، تلك الصور التي خلدت ذكر صاحبها بقصائد فهو مازال يطل علينا إبداعا عن تراث عصراً مازال التاريخ يصفح به على مر الزمن.

[28] ينظر المصدر السابق :3.